أوراق، أو التعبير الإبداعي

عن انشغالات العروي الفكرية

عبد العالي بوطيب

يعد الأستاذ عبد الله العروي من المفكرين المغاربة القلائل المعروفين في الأوساط الثقافية العربية بتنوع اهتماماتهم المعرفية وتشعبها، من تاريخ لفلسفة ففن فسياسة الخ. وهو اهتمام تنعكس آثاره الواضحة على مختلف أعماله النظرية والإبداعية على السواء، ولو بأشكال ودرجات متباينة تفرضها طبيعة كل عمل، وما تسمح به خصوصياته من إمكانيات تعبيرية متنوعة، مما يفسر التداخل والتكامل الملحوظين، على مستوى المواضيع المطروحة بين كل هذه الأعمال، بحيث تصبح الأعمال الإبداعية والفكرية واجهة من واجهات الكشف عن هذه الاهتمامات والمشاغل واستجلاء أبعادها، وفي هذا الإطار يمكن فهم ما قاله الأستاذ العروي في أحد استجواباته الأخيرة: >أشعر أني كشفت عن كل الأوراق في الفريق وفي أوراق"(1). على أنه إذا كان الأمر كذلك بالنسبة له ككاتب، فإني أعتقد من جهتي كقارئ، بأن أوراق كشفت أكثر من الفريق عن هذه الآراء وعبرت عنها، خصوصا وأنها طرحت بوضوح العديد من القضايا الفكرية والفنية التي شكلت الهاجس المركزي لانشغالات الأستاذ العروي في كتاباته النظرية، مما يفسر الطابع الدسم لهذا العمل الإبداعي المتميز، لدرجة يشعر معها القارئ في النهاية بنوع من التخمة المعرفية، إن صح التعبير، نظرا للجولة الفكرية الشاملة، العميقة، والممتعة التي يقوم بها صحبة كاتبه في جميع أرجاء همومه وانشغالته المعرفية.

وهو ما قد يشكل عائقا كبيرا يصعب معه على القارئ العادي من منطلق خلفيته الفكرية والإبداعية الضيقة التعامل معه واستيعابه بنوع من السهولة واليسر، ولعل هذا الإحساس هو ما عبر عنه أحد مستجوبيه قائلا: هناك انطباع لدى القارئ المغربي والعربي أن رواياتك قلما تستطيع أن تجتذب إليها المتلقي ليواصل القراءة أو إعادتها".(2) وهي قناعة نعتقد أن العروي نفسه يشعر بها، وإن كان يبررها بكونه يكتب لقراء العقل لا العين، وأن خطابه موجه أساسا للفئة الواعية التي بإمكانها التواصل معه دون

حواجز: "فإذا قرأني النقاد والقصاصون فهذا يجزيني". (3)

لهذا فلا غرابة إذا ما وجدنا أعماله تحظى بإعجاب وتقدير كبيرين في الأوساط الأدبية المغربية والعربية على السواء، لا لثرائها المعرفي فقط، وإنما لكونها، أيضا وأساسا، مسكونة بهاجس البحث الفني عن أنسب الطرق التعبيرية وأحدثها لتبليغ هذه الأفكار والمعارف، عملا برأي إدريس بطل أوراق القائل: >بأن المرء يستطيع دائما أن يستمر في تأليف روايات على نمط بالزاك، كما يستطيع أن يكتب، بمساعدة القواميس، ملحمة بالأكادية، لكن لأي قارئ، وبأي هدف سوى المحافظة على كنز لغوي موروث!".(4) وحتى نقرب القارئ الكريم من هذه الملاحظات، ونقدم له الدليل الملموس على مصداقية ما قلناه، سنتوقف قليلا عند أوراق العمل الابداعي الرابع للأستاذ العروي، في محاولة لاستجلاء بعض جوانبه الفنية والفكرية.

وهكذا يمكننا القول إجمالا بأن هذا العمل هو عبارة عن محاولة من السارد لحث شعيب على كتابة سيرة ذهنية لصديقه المتوفى ادريس، اعتمادا على الكنانيش المبتورة، والأوراق المبعثرة التي خلفها وراءه، وفاء لروحه من جهة، واستجلاء لسر موته من جهة أخرى، وبعد تردد مبدئي معقول من شعيب خوفا من الإساءة لروح هذا الصديق، وتهيبا من صعوبة تحقيق الأمانة والصدق المطلوبين في مثل هذه الحالات التي يباعد فيها الزمن بين القارئ والمقروء، وما يترتب عن ذلك من تداخل وتمازج بين العناصرالذاتية والموضوعية في تشكيل الصورة الخاصة للمادة المقروءة مما يجعلها أقرب للخيال-الشبح منها للواقع-الحقيقة: >يدعي البعض القدرة على استحضار الماضي، مافات وانعزل من الزمن، بجزئياته ودقائقه، هذا سر حجب عني، لا أستطيع حتى استحضار شكل إدريس، قد وصفته، وأصفه لك الآن، كما لو أني أرفع ستارا أو أقلب أوراق اليوم، متوسط القامة ، قوي العضلات، كبير الرأس، سلس الشعر، عريض الجبهة، أخضر العينين، غليظ الأنف، واسع الفم، صورة مؤلفة من مجموعة لقطات غير متزامنة، عاشرته حتى أني لم أعد أراه، احتفظت بصورة منقوشة في ذهني كانت مطابقة لما كنت أرى في وقت من الأوقات، ثم انفصلت وبقيت مرتبطة بشبح أطلق عليه إسم إدريس، تغير هو وبقيت هي ثابتة<.(5)أقول بعد تردد طفيف وبإلحاح من السارد، قبل شعيب تحمل هذه المسؤولية وإن كان في العمق يستشعر جسامتها. تناول أوراق إدريس باعتبارها الوثائق الشخصية التي سيعتمدها في كتابة سيرة صديقه الذهنية بغية الكشف عن أسباب وفاته المفاجئة.

وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أن مجرد ربط البحث في السيرة الذهنية لإدريس بهدف الكشف عن أسباب وفاته، يعد في اعتقادي مؤشرا ضمنيا كافيا على أن الشكوك تنحصر فيما هو فكري ذهني، ولا علاقة لها إطلاقا بأي مجال آخر، مما يفسر طبعا سر هيمنة المناقشات الفكرية على النص، وكثرة الإحالات المرجعية

المختلفة والمتنوعة الواردة فيه، على غير ما هو مألوف في مثل هذه الأعمال الإبداعية.

وطبعا بما أن هذه الأوراق مبعثرة ومتناثرة فقد استوجبت من شعيب قراءة أولية متأنية بغية ترتيبها وتصنيفها، وبالتالي إخضاعها، شأنها في ذلك شأن كل الوثائق المكتوبة الأخرى، لما يعرف –بالمنهج– كخطة إجبارية معروفة في قراءة الوثيقة التاريخية قراءة سليمة، تقترب أكثر من حقيقتها مقلصة قدر المستطاع هامش الاستنتاجات والتأويلات الذاتية المفروضة عملا برأي إدريس القائل: >إن المشكل العويص الذي يعترضنا هو كيفية قراءة ما بين أيدينا من تلك الوثائق<(6) مما يبرر الحيرة الكبيرة التي عبر عنها شعيب في شكل استفسارات وتساؤلات عميقة وخطيرة، وهو يتلقى هذه الاوراق–الوثائق من السارد: من قال لك إنه كان يرغب في أن يحفظ ذكره؟ من يضمن لنا أن ماترك هو أحسن وأصدق ماكتب؟ ألا يكون الأهم ماحجبه عنا واختفى بوفاته؟ الاوراق بلاشك غير متسلسلة، أساليبها لاشك متنوعة، إذا ركبتها على كيفي ربما حملتها معنى غير الذي أراده إدريس، ربما أعطيت عنه صورة غير مطابقة للحقيقة، وإذا نشرت كل مافيها على حاله ربما ألحقت به الضرر، قد أعطي عنه صورة أقل وفاء من تلك التي خططتها عندما جعلت منه شخصية خيالية.(7)

وهذا ما يتضح ضمنيا، طبعا، من التبويب العام الذي أعطاه شعيب لهذه الوثائق، ومن خلالها للعمل ككل، حيث نجده يقسمها، بالإضافة للمقدمة والخاتمة، ("شبح شعيب" و"التأبين") اللتين لاتتوفران عمليا على أي ورقة من أوراق إدريس، بقدرما تشكلان الإطار العام، التحفيزي في البداية، والتوقعي في النهاية، الذي تندرج فيه هذه المحاولة –أقول بالإضافة إلى ذلك نجده يوزع الأوراق لثلاثة أقسام كل قسم منها على ثلاثة فصول، يحمل كل واحد منها عنوانا دالا على مضمون الأوراق المندرجة فيه، بحيث يصبح التوزيع–الترتيبي العام لهذه الأوراق الوثائق، وبالتالي للعمل ككل كما تعكسها محتوياته على النحو التالي: (–شبح شعيب ...

القسم الأول : –الفصل الأول : العائلة –الفصل الثاني : المدرسة–الفصل الثالث : الوطن

القسم الثاني : –الفصل الرابع : الوجدان –الفصل الخامس : الضمير –الفصل السادس : الهوية

القسم الثالث :–الفصل السابع: العاطفة–الفصل الثامن: الذوق –الفصل التاسع : التعبير–التأبين)(8)

وهو توزيع يقوم كما هو واضح على عدة معايير منها الكرونولوجي الذي يعتمد التسلسل الزمني التصاعدي للوثائق بدءا بالطفولة وانتهاءا بالخيبة والموت، مرورا بما بينها من مراحل الدراسة المختلفة الأخرى، وهذا ما يمكن اشتشفافه، بالملموس، من التوالي الزمني المحكم لأقسام العمل الثلاثة الكبرى. حيث يهتم كل قسم منها بمرحلة معينة من مراحل حياة إدريس . وهكذا يغطي القسم الأول مرحلة

الطفولة إلى نهاية التعليم الثانوي، بينما يغطي القسم الثاني مرحلة التعليم الجامعي، أما القسم الثالث والأخير فيهتم بمرحلة ما بعد الدراسة الجامعية. ومنها المعيار التيماتي الذي يعمد فيه شعيب لتوزيع أوراق إدريس داخل كل قسم بناء على مابينها من تقارب مضمون مجموعات ثلاث تندرج كل واحدة تحت عنوان الفصل المعبر عنها.

بعد هذه العملية الأولية الضرورية بالنسبة لقراءة الوثيقة الكتابية قراءة سليمة، ينتقل بنا شعيب لاستعراض محتويات هذه الأوراق، الوثائق، المنضوية تحت كل فصل المتضمنة في كل قسم ، معتمدا في ذلك طريقة خاصة ومتميزة في السرد الروائي تذكرنا بما يعرف في كتب التراث العربي بالمتن والتعليق حيث يقدم المتن أولا بنوع من الموضوعية، وهو هنا ورقة من أوراق إدريس موضوعة بين قوسين يعقبها تعليق، هو هنا عبارة عن نقاش ضاف بين السارد وشعيب حول جميع جوانب الوثيقة –المتن– الفكرية والفنية، وأبعاد ذلك الدلالية في كشف سيرة إدريس الذهنية بغية الوصول لتحديد أسباب وفاته المفاجئة. كل ذلك، طبعا في سياق تطور مسيرته الفكرية والاجتماعية الخاصة، في علاقتها بالمعطيات السياسية والفكرية العامة التي شهدتها المرحلة التاريخية التي عاش فيها، سواء على المستوى الوطني أو الدولي، خصوصا وأنه عاش مرحلة انتقالية حساسة تمتد على أربعين سنة موزعة مناصفة بين مرحلتي الاستعمار والاستقلال، وهي خطة نعتقد أن اختيارها لم يأت اعتباطيا مع ما يندرج في إطار استراتيجية إبداعية متكاملة، الغاية منها خلق فرص نقاش شامل وعميق حول مجمل القضايا الفكرية والفنية والتاريخية المتضمنة في أوراق إدريس، والتي هي في الوقت ذاته مركز اهتمام السارد باعتباره >الأنا الثانية للكاتب<(9) حسب تعبير واين بوث W. Booth (le second moi de l'auteur)، مما سيمكنه في النهاية من التعبير عن بعض آرائه الخاصة حول هذه القضايا التي سيستعصي عليه التعبير عنها في إطار كتاباته النظرية والفكرية: >في أعمالي النقدية أحاول أن أكون متجردا غير منتم لبلد أو لثقافة أو لعقيدة معينة، أذهب إلى حد أن أريد أن يكون كلامي، وكأنه صادر عن شخص أجنبي تماما على هذه المشاغل، لكني أعلم أن هذا موقف نظري فقط، مفترض إن لم نقل مفتعل، أعلم أنني بوقوفي هذا الموقف أ سهو عن جانب من ذاتي فأعود لأصفه بوسيلة أخرى، بأسلوب متميز خاص به، هو الأسلوب الأدبي.(10) وحتى يخفف الكاتب قليلا من الطابع التحريدي لهذا النقاش، ويضفي عليه حيوية وحرارة أكثر، فقد فعله في شكل حوار دائم ومستمر، بين شخصيتين مختلفتي الرؤية والتكوين: هما السارد وشعيب، كما يتجلى ذلك ضمنيا من أقوالهما، مما فسح المجال واسعا لتبادل وجهات النظر من جهة، كما مكن من جهة أخرى من تناول القضايا المعروضة من جميع جوانبها المختلفة اعتمادا على جدلية السؤال والجواب، الدائر حول أوراق إدريس بين السارد وشعيب من جهة

أخرى.

وبذلك يمكننا القول بأن السارد اعتمد في هذا العمل الرؤية المجسمة، (11) (la vision stéréoscopique) حسب تودوروف، أو ما يعرف بالتبئير الداخلي المتعدد (12)(Focalisation interne multiple) إن شئنا استعمال مصطلحات جيرار جنيت، المعروفة بتعدد وتنوع النظرات الخاصة للقضية الواحدة المعروضة، مما يمنح القارئ فرصة الإحاطة الشاملة بدقائقها من جهة، ويوفرله في الوقت ذاته إمكانية ضبط الفروق النوعية بين نظرات الشخصيات لها من جهة ثانية: >وبالفعل، فإن تعدد الإدراكات يعطينا نظرة أكثر تعقيدا للظاهرة الموصوفة، ومن جهة أخرى، فإن أوصاف حدث واحد تسمح لنا بتركيز اهتمامنا على الشخصية التي تدركه، لأننا نعرف الحكاية سلفا<. (13)علما بأن دور ووظيفة هذا النقاش/التعريف هنا، لاتقف عند هذا الحد، وإنما تتجاوزه لما هو أبعد، حيث يحاول السارد عبره إيجاد نسق منطقي يضبط العلاقة بين مختلف أوراق إدريس المبعثرة والمتناثرة، وذلك عن طريق ملء الثغرات الموجودة فيما بينها، وهو ما يعني، بعبارة أخرى، أن السارد في الوضعية الخاصة التي يوجد عليها، أمام متن حكائي كتابي مبتور، وغير متساوق، (أوراق إدريس)، مضطر إن هو أراد القيام بالمسؤولية المنوطة به على أحسن وجه الجمع ما بين أكثر من وظيفة، وألا يقتصر فقط على الوظيفة السردية (14) (la fonction narrative) باعتبارها المهمة الأساسية المتمثلة في تقديم أوراق إدريس بشكل موضوعي محايد، دون تعليق أو تأويل، لما سيترتب عن ذلك من تقصير وإخلال بالمسؤولية، يتولد عنهما بالضرورة مواجهة مباشرة للقارئ بهذه الوثائق، لن يتمكن معها بأي حال من الأحوال من فك ألغازها، وهو ما يعني بعبارة أخرى ضياع الأهداف والغايات المسطرة من وراء العمل ككل. لهذا وتفاديا من السارد لهذه المضاعفات غير المرغوب فيها نجده يقوم إلى جانب الوظيفة الأساسية السابقة، بمجموعة من الوظائف الثانوية الأخرى، كالوظيفة التوثيقية la fonction 15) (testimoniale ou l'attestation) المتمثلة في تحديد مصدر حصوله على هذه الوثائق، حتى لايبقى هناك أي شك لدى القارئ في مصداقيتها وبالتالي في مصداقية خطابه حولها: >أخبرني من أثق به أن والدته نذرت وهو في بطنها< (16) >يقول الاستاذ اللبان إنه قرأ في كنا شة أحد أقربائه أن مولده...<(17) >هذه أوراق إدريس، فخذها أنت أقرب الناس إليه ، وإلا اشتراها البقال ليحرقها أو يغلف بها الحمص، الكتابة حرفتك افعل بها ما تراه نافعا<.(18) ووظيفة التواصل أوالشرح (la fonction de communication 19)(قصد تقريب القارئ من حقيقة الوثيقة –الورقة–وإلقاء أكبر قدر ممكن من الأضواء الكاشفة عليها، حتى يسهل على القارئ إدراك خباياها وانتقادها على المستويين الشكلي والفكري على السواء، لنستمع إليه يعلق على الورقة الأولى قائلا : >الظاهر من كلامه أنه لم يعر كبير اهتمام لمسألة الأصل والنسب،

يعلم أنه من البشر، أنه ينتمي إلى التجار، التجار الحقيقيين، لا الهواة مثل أبيه، الذين يتخذون التجارة مشغلا لامكسبا <.(20) ولعل هذا ما انعكس على مستوى الصيغ التعبيرية الموظفة فأتت في شكل مراوحة مستمرة ودائمة بين السرد والتعرض، الحكي والتعليق، مما يمكن ملامسة بسهولة في خطابات كل الشخصيات دون استثناء.

وعموما فقد تمكنا عبر هذا التناوب التعبيري والرؤيوي الدقيق و المحكم في الوقت ذاته من متابعة رحلة إدريس المعرفية، وبعبارة أخرى الذهنية، من خلال الوقوف المتأنى عند أهم المحطات المعيشية–الفكرية التي كان لها أكبر الأثر في النهاية المأساوية التي آلت إليها حياة إدريس، والتي يمكن توزيعها لثلاث محطات تطابق في مجموعها التقسيم الثلاثي للعمل ككل، كما أسلفنا، فماذا يمكن القول عن هذه المحطات–المراحل؟.

أولا– المرحلة الأولى: وتوافق على المستوى النصي القسم الأول منه، كما أنها تغطى على المستوى الزمني من عمر إدريس المرحلة التعليمية الابتدائية والثانوية، حتى حصوله على الباكلوريا، وأهم ما يميزها أنها شكلت اللبنة الأساسية التي سيقام على صرحها كيان إدريس الشخصي، لدرجة سيتعذر عليه مستقبلا التخلص من تأثيرها القوي فكريا وشعوريا، خصوصا وأنها عرفت مسارا واحدا من البداية للنهاية تمثل في التعليم العصري الفرنسي آنذاك، بكل ما يهيمن على موارده ومقرراته من توجهات فكرية معرفية وحضارية، ذات الأصول الغربية البعيدة كليا عن المعطيات الوطنية والقومية والدينية الأصيلة التي كانت والدته ترغب في تنشئته عليها: >أخبرني من أثق به أن والدته نذرت وهو في بطنها أن لا تدخله مدارس النصارى، وأن توقفه على شيوخ فاس ومراكش، لكنها ماتت وهو صغير فوجه إلى غير ما أرادت، سافر إلى بر العدو ولسنين عديدة حتى ثقف رطانتهم وصناعتهم، خالط الكبراء والنبهاء منهم دون أن يتخلى عن عقيدة وعادات قومه، ظن الجميع أنه سيعود بمعارف ونوامس تقلب الأحجار إبريزا، لكن لم يتحقق شيء من ذلك ربما بسبب نذر أمه<.(21)

وهكذا تعلم في هذه المرحلة اللغة الفرنسية وأتقنها، كما اطلع على العديد من المعارف الغربية خصوصا الفلسفية والفكرية منها، ككتب نيتشه وديكارت وسارتر، مما سيكون له أكبر الأثر في تشكيل شخصية إدريس في هذه المرحلة الأولى والأساسية من حياته، مما طبعها بصبغة عقلانية مفرطة، على حساب فقر عاطفي وحداثي فظيع لن تظهر عواقبه السلبية إلا فيما بعد، ومما زاد في تعميق هذا الاختلال في نمو ملكات إدريس العقلية والعاطفية، غياب المرأة من حياته العائلية والشخصية، خصوصا بعد وفاة والدته وهو في سن مبكرة، وعدم تعرفه كذلك على أي فتاة تعوضه هذا الحنان المفقود، كما يمكن أن نضيف

لذلك أيضا انفصاله المبكر عن العائلة وجوها العاطفي لأسباب دراسية، فهو تارة في مراكش، وأخرى في الرباط وثالثة في الدار البيضاء ...

لهذا فلا غرابة إذا ماوجدنا إدريس في المرحلة المتأخرة من تعليمه الثانوي، ومع اشتداد الأزمة الوطنية وتأزم الصراع بين القوى التحررية المغربية والاستعمار، يواكب مستجدات هذه الفترة الحرجة من تاريخ المغرب، تحليلا وتقويما بنفس المعايير العقلانية التي تشبع بها في الفلسفة النتشوية والسارترية المؤمنة بالطاقات البطولية الفردية والحرية والمسؤولية، في غياب مثل أعلى مسبق، وهو مايبدو جليا في المذكرات والأوراق الخاصة التي تركها إدريس بخصوص هذه المرحلة، موضحا فيها آراءه ومواقفه الشخصية من مختلف القضايا المعروضة، إما بشكل مباشر أو غير مباشر، لعل أبرزها التركيز على أهمية الدور التربوي والنفسي كعامل أساسي في تحقيق الاستقلال الحقيقي لا الشكلي، ولو كان ذلك على حساب الحرية العامة والخاصة في مرحلة تاريخية انتقالية معينة كتلك التي سيعرفها المغرب مباشرة بعد حصوله على الاستقلال: >لأننا لانكافح من أجل حرية الأفراد، حرية المغاربة بل في سبيل حرية المغرب، نريد مغربا مستقلا حتى لو عاش المغاربة في البداية تحت ديكتاتورية رهيبة، لذا لانلقي سمعا لمن يقول : المعمرون أرحم من الملاكين المغاربة، الرأسماليون الفرنسيون اعدل من البورجوازيين المغاربة، الدخلاء دخلاء وكفى، نقول هذا لا عن كراهية عمياء أو تحيز حزبي ولكن عن استنتاج منطقي. إن الثورة النفسانية التي ستعيد وحدها للمغاربة، والمسلمين عامة، موقعهم في العالم والتاريخ يستحيل أن تكون من عمل الفرنسيين، بل أن تطبق بحضورهم، لايحصل التعبير اللازم، الذي قد يتطلب اللجوء إلى القوة، لايمكن القضاء على الخمول الموروث المانع لكل تقدم إلا في ظل الاستقلال<(22) ويضيف قائلا في نفس الفصل الثالث المعنون بالوطن: >كل يوم أزداد قناعة أن المقاومة الحقيقية هي الميدان النفساني، يجب أن نحارب هذه الذهنية، حتى نجتثها<. (23) وهو يستدل على صحة إدعائه، بالإضافة طبعا لاقتناعاته الفكرية المترتبة عن مطالعاته الفلسفية الغربية بنتائج بعض التجارب العلمية التي أجراها بعض الباحثين الأجانب، على التأثير السلبي لبعض البرامج التعليمية التقليدية في توجيه بعض الملكات الفكرية للتلاميذ الذين يخضعون إليها : >كتب الانجليزي هاكسلي مقالا مطولا عن تونس، وصف فيه مالمسه من وعي نقدي وحب استطلاع عند صغار التونسيين، ولاحظ أنهم بقدرما يتلقون دروسا في الدين بقدرما يختفي وعيهم النقدي ويشبع بينهم الكسل الذهني<.(24) وهو مايفسر مختلف الانتقادات العامة التي وجهها إدريس في هذا الفصل للبرامج والاستراتيجيات الحزبية والسياسية المتبعة آنذاك: >يخطئ الحزب عندما يظن أن الكفاح السياسي كاف، لا، الدليل هو ما نلاحظه من قمع والصمت المحيط به<.(25) ويضيف معلقا على بعض

المواقف: >درس الأزمة أن ملك البلاد في الظروف التاريخية الراهنة، كان عليه أن يسير شعبه لا أن يسبقه والحزب أيضا ارتكب خطأ موضوعيا ما كان في وسعه أن يتحاشاه، ظن أنه ينطق بلسان الشعب، في حين أنه كان ينطق بلسان الأقلية المتقدمة –أكثر من اللازم– على الاغلبية، لم يعم الوعي كل عناصر الشعب في البوادي والقرى والمداشر، اتسعت الفجوة بين الحزب والشعب، أراد الحزب أن يجر إليه الشعب بعنف، فتمططت الحبال، ثم تقطعت واندس عملاء العدو بين الجار المجرور<. (26) وكخلاصة عامة يمكن القول بأن أهم ما يميز هذه المرحلة الأولى من سيرة إدريس الذهنية تشبعه الكبير بالتراث الغربي الفكري مقابل غياب واضح للثقافة العربية الإسلامية الاصيلة، مما ترتب عنه ضمور ملحوظ للجانب العاطفي الوجداني في شخصيته، أمام طغيان للجانب العقلاني، كما يظهر ذلك جليا من اهتمامه المفرط بالقضايا الموضوعية العامة على حساب القضايا الذاتية الخاصة، وهذا في طريقة تعامله معها، مما سيكون له طبعا الأثر البين في تشكيل شخصية الذهنية من جهة ويفسر في الوقت ذاته سر النهاية المأساوية التي ستؤول إليها حياته من جهة أخرى؛ كما سيتضح ذلك جليا في المراحل الموالية من هذه السيرة الذهنية.

ثانيا– المرحلة الثانية: وتضم فصول القسم الثاني الثلاثة (الوجدان – الضمير – الهوية) وتغطي على المستوى الزمني المرحلة التعليمية الجامعية التي سيقضيها إدريس بفرنسا: >ثم سافر إلى باريس يوم العاشر من اكتوبر، فاز بمنحة حكومية على شرط أن يهيئ المباراة العامة لولوج المدرسة الادارية <، (27) وبذلك سيحقق نقلة نوعية إضافية خاصة على مستوى ارتباطه بالتراث الثقافي والحضاري الغربي، مقابل اغتراب شبه كلي عن الواقع والثقافة الوطنيين.

وهكذا فبعد ماكانت علاقته بهذا التراث تقتصر في المرحلة التعليمية السابقة على ماهو نظري ممثلا في الدروس والمحاضرات التي كان يتلقاها إضافة للكتب التي كان يطالعها، مع بقائه في الجو الحضاري المغربي، فإننا سنجده في هذه المرحلة يقطع علاقته المباشرة كليا بهذا الواقع، بحيث لن يحضر بعد إلا كذكرى وشبح تبرز على أرضيته وإطاره الخلفي صورة وملامح الواقع الغربي، مما سيشكل تحولا نوعيا خطيرا في مسيرة إدريس الذهنية، نظرا للاختلافات الكبيرة الموجودة بين الواقعين: المغربي والفرنسي، الشرقي والغربي، وهكذا ورغم الجهود المضنية التي سيبذلها إدريس من البداية للتغلب على آثار هذه المعاناة النفسية والفكرية، عن طريق الانعزال عن الأجواء الطلابية المغربية في باريس والاهتمام أكثر بالتحصيل والتثقيف الشخصيين: >اجتمع في دار المغرب عدد من الطلبة المغاربة الذين قضوا سنوات في باريس دون أن يحرزوا على أية نتيجة، كانوا لايبرحون الحي الجامعي...من الغرفة إلى المطعم، ومنه إلى المقهى ثم إلى قاعة الاجتماع، يلعبون الكارته، يشربون البيرة، يتذاكرون في أخبار المغرب، الحقيقية والملفقة. تأذى إدريس من جوارهم

حتى أنه فضل بعد سنة أن ينتقل إلى دار اليابان حيث لم يكن يعرف أحدا، حيث كان يسمع حس الريشة إذا لمست الارض<.(28) إلا أن بوادر أزمة نفسية كبيرة كانت تتشكل في الأعماق، زاد من تأججها أنها صادفت على المستوى الزمني الشخصي، مرحلة المراهقة، بكل ماتعرفه من تحولات فيزيولوجية ونفسية كثيرة وخطيرة في نفس الوقت، بالإضافة إلى أنها قابلت على المستوى التاريخي العام اشتداد الأزمة المغربية الفرنسية، بكل التطورات السريعة والمتلاحقة التي عرفتها، وهو مايعني بعبارة أخرى، أن دواخل إدريس، ستكون في هذه المرحلة الثانية على قصر مدتها مقارنة بالسابقة (أربع سنوات مقابل سبعة عشر سنة) مسرحا لتفاعلات مركبة، منها ماهو ذاتي خاص ومنها ماهو موضوعي عام. كما يتضح ذلك جليا من خلال عناوين الفصول الثلاثة المشكلة لهذا القسم (الوجدان – الضمير – والهوية).

وهكذا، وعلى المستوى الأول الداخلي، سنجد إدريس يكتشف من خلال لقائه المباشر بالواقع الغربي ملاحظتين أساسيتين، ما كان ليكتشفهما لو بقي في المغرب ولم يرحل لفرنسا، وكلاهما ترتبطان بتكوينه الشخص.

–الأولى: تخص، تمس الذوق ، وتلمس خلالها منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدماه أرض باريس، الفرق بينهم وبين الفرنسيين من هذه الناحية: >امتطى حافلة اخترقت الضواحي الجنوبية، بدت له العمارات سوداء، كل الألبسة باهتة، لاتخرج عن القهوي الفاتح أو الحجري المقفل، كان يلبس معطفا أزرقا ضاويا، وحذاء ملمعا أحمر، أدرك في الحين أن لباسه لايوافق أرضا تعادي الألوان <. (29) ويضيف قائلا: >كان حذاء إدريس الأحمر الملمع مقوى في جانب الكعب بقطعة حديد: كلما خطا خطوة تزعزع الدرج، لاحظت الفتاة مازحة: مصفح كالحصان! فعلم إدريس أن ذوق المغرب لايوافق باريس، وبالفعل خلال السنوات الثلاث التالية اكتسب إدريس أفكارا جديدة. من أجل هذا سافر إلى فرنسا، لكن التحول الحقيقي الذي طرأ على نفسانيته هو أنه اكتسب ذوقا جديدا. إن إدريس الذي حج إلى مونتمارت قبل أن يغادر باريس أواخر غشت 1956، غير إدريس الذي طرق دار المغرب، صباح عاشر اكتوبر 1953<.(30)

–الثانية: الحب الذي يعتبر في نظر الغربيين عامة، والفرنسيين خاصة، الهدف الأساسي الأسمى للحياة التي يسعون لتحقيقها: >الحب عاد لدى الأوروبيين هدف الحياة، نتساءل لماذا يدفع الناس بعضهم البعض، تظن أن الوافر هو المال أو الجاه أو النفوذ، أو الميل إلى المخاطرة أو الذهول عن الذات بوسيلة الخمر أو غيره، ثم تكتشف أن أولئك المتدافعين يعتقدون أنهم يجرون وراء هدف، وراء حلم هو الحب المتبادل يجاهدون ليحافظوا عليه إن امتلكوه، وليعثروا عليه إن افتقدوه، كل شيء حولهم يخاطبهم بلغة الحب:

المدرسة، الكنيسة، الكتاب، الصحيفة، المتحف، المسرح، السينما، الانهار<.(31) لدرجة أصبح معها عقيدة يؤمنون بها، ويتخذونها هدفا وغاية، فلم يقولون ويعيدون؟ >ديننا الحب، ولا حب عند غيرنا< والدليل على ذلك أنك إذا ما دخلت إلى أية كنيسة صباح يوم الاحد: >ستسمع الخطيب يقرر أن المسيح هو الحب، أفهم الكلمة أنت كما تريد، ولكن الملاحظ هو أن المسيحية سلوك، وسلوك المسيحيين يدور كله حول علاقة الحب المتبادل<.(32) مما سيشكل عاملا قويا لمساعدة إدريس على فهم الفراغ العاطفي المهول الذي تمر به حياته، وبالتالي الاختلال الكبير الذي يعرفه تكوينه الشخصي، حيث يعلو الجانب الفكري العقلاني على حساب الجانب العاطفي الوجداني: >عائد من السينما، أمر بقاعة الاجتماعات مضاءة صافية، مملوءة بالطلبة المحتفلين بعيد الميلاد! لم أشاركهم فرحتهم، التجأت إلى قاعة مظلمة تابعت فيها أدوار قصة مبتذلة دغدغت عواطفي، وأطفأت شهوات نفسي، أتظاهر باحتقار زملائي لأنهم يلهثون وراء الأنثى، لكن عندما أجد نفسي وحيدا مهجورا في قاعة مكتظة بالأزواج، أكاد أتقيض عنها ، أقول إنها نوبة ضعف، سأتجاوزها، أقول إنه سيناريو أمثله باستمرارلنفسي< (33) وبذلك يمكن القول، إجمالا، بأن رحلة إدريس التعليمية الجامعية لباريس عاصمة الحضارة الغربية، في هذه الفترة الحساسة من حياته –المراهقة – شكلت حافزا كبيرا جعله يكتشف الكثير من جوانب الاختلاف والتناقض الموجود في تكوينه الشخصي، عاطفيا وجماليا، مما سيحثه مستقبلا دون شك على بذل جهود كبيرة لتعويض هذا الخصاص، وتدارك مافات، فهل سيوفق في تحقيق ذلك؟.

الحقيقة أن الإجابة عن هذا السؤال لن تكون ممكنة إلا إذا استكملنا الحديث عن باقي جوانب التأثير الاخرى، خصوصا الموضوعية منها، التي سيخلفها على المستوى النفسي والفكري اتصاله المباشر بفرنسا في هذه المرحلة الحساسة في تاريخ العلاقة المغربية الفرنسية، في ظل التوتر الشديد الذي تعرفه، وما سيخلفه من آثار في نفسية إدريس المثقف المغربي الحساس، وانعكاس ذلك كله على تشكيل ملامح الوجه الثاني للحضارة الغربية –الفرنسية– التي فتنته سابقا بوجهها الإيجابي الأول، باعتبارها قوة سياسية استعمارية متسلطة على بلده، تنهب خيراته وتستغل ثرواته وتستعبد أهله، مستعملة في ذلك كل الوسائل والإمكانيات المتاحة، غير عابئة بأبسط الأعراف والمواثيق الدولية المعمول بها في هذا المجال، مما ستكون له دون شك عواقب ومضاعفات مباشرة وواضحة على نظرة إدريس لفرنسا، ومن خلالها للغرب ككل، نظرة أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها ثنائية، يختلط فيها الإعجاب بالكراهية، والحب بالحقد، العاطفة بالعقل والذاتي بالموضوعي، لدرجة يصعب معها تحديد موقف نهائي واضح منها، وكيف لا! وهو يعجب بالجوانب الإيجابية في حياتهم العامة المبنية على المحبة والإخاء، في الوقت نفسه الذي يكره فيه تعاملها

الوحشي اللاقانوني مع المطالب الوطنية العادلة والمشروعة في الحرية والاستقلال، وكأن فهمهم للمحبة ضاق لدرجة لم يعد معها يتسع ليشمل أبناء باقي الشعوب والأجناس والديانات الاخرى، وهو ما يفسر في اعتقادي الازدواحية البينة التي لاحظها شعيب والسارد في سلوك إدريس في هذه المرحلة، مقارنة بما سجله من انطباعات إيجابية عن الحضارة الغربية في بعض أوراقه، معللين ذلك بعوامل الزمن والمكان والأصل، يقول شعيب: >-أتعجب إذ ألاحظ الفرق بين كاتب هذه السطور، وإدريس الذي كنا نقابله يوميا في الاجتماعات الطلابية، خاصة أثناء سنة 1956، ثم أدقق فأرى بعض الأسباب لهذه الازدواجية.

- أسباب الزمن والمكان.

- نعم المكان باريس، والزمن منتصف القرن العشرين، ولاتنس ثالث الأنا في الأصل، ماذا يكتشف ياترى شاب مغربي ذو ثقافة عربية إسلامية؟

- غير واضح فيما كتب .

- أتكلم عن التربية التي تلقاها إدريس في حظيرة عائلة مكونة من أب وجدة وإخوة، تربية لاتلعب فيها المرأة أي دور بعد السنة السابعة أو الثامنة، ماذا عساه أن يكتشف سوى الحب<.(34)

وإذا كنا نتفهم تماما سر تبرير هذين المتحاورين (شعيب والسارد) ومن خلالهما طبعا الأستاذ العروي لهذا الموقف المضطرب في سلوك إدريس، باعتماد عاملي التاريخ والجغرافية، باعتباره مؤرخا يعتمد في تفسيره للوثائق، كما أبرزنا ذلك سابقا، على هذين المعيارين، فإن الأمر اللافت للانتباه هنا هو إقحام عامل التربية مرة أخرى، كعنصر هام في تحديد المقومات الذهنية للشخصية، واستجلاء الأسباب الخفية لبعض سلوكاتها المتناقضة الغامضة، مما يترك الانطباع لدى القارئ من خلال هذا التأكيد المتواصل على أهميتها، بأن الأستاذ العروي، يعيد إليها كل التطورات الخاصة التي ستعرفها حياة إدريس، وماترتب عنها من مضاعفات عامة على مسيرة المغرب التاريخية باعتباره رمزا لجيل مغربي معين تلقى تربية خاصة تميزت بالعقلانية-المثالية-المفرطة، والتشبع بالفكر الغربي على حساب الثقافة الوطنية العربية الإسلامية الأصيلة، مما سينعكس في الاختلال الشامل والتحول اللامتناسق الذي ستعرفه مكونات شخصية إدريس من ناحية، والطريقة العقلانية المتطرفة التي سيتعامل من خلالها مع القضايا التي ستواجهه على المستويين الشخصي والوطني من ناحية أخرى، كان من أبرز مظاهرها القطيعة الفظيعة التي تفصله عن واقعه في ظل الإحساس بالتباعد المأساوي بين مايفكر فيه ومايحياه، وهو شعور ستزكيه طبعا الأحداث التاريخية التي عرفها المغرب بعد حصوله على الاستقلال، بكل مايرمز له هذا الحدث الهام من آمال وتطلعات طالما راودت مخيلة أبناء الشعب المغربي، خصوصا منهم المترددين على فرنسا، دون أن تعرف للأسف الشديد

ترجمتها العملية على أرض الواقع، مما سيصيبهم بإحباط وخيبة كبيرين ستكون لهما دون شك آثار سلبية واضحة على سلوك هذا الجيل المغربي ممثلا في شخصية إدريس في المرحلة الثالثة والاخيرة من سيرته الذهنية. يقول إدريس واصفا هذا الإحساس المرير: >وبالمناسبة أذكر أننا نحن الذاهبين إلى فرنسا والعائدين منها كنا ضحية سراب، ظننا أيام الحماية، أن كل ما يوجد على أرض الوطن ملك لنا، فتخيلنا المغرب أكثر تقدما، مما كان في الحقيقة، وعند الاستقلال أدركنا بغتة أن كل ما كنا نشاهد هو ملك لفرنسا وللفرنسيين، وأننا حتى لو أردنا اقتناءه لما استطعنا ذلك إلا بعد زمن طويل، بدت لنا الهوة السحيقة بين الواقع والاماني، فهمنا أن الانطلاقة ستكون من نقطة وطيئة جدا جدا .

– فعمت إذن الخيبة ، وبدأت الردة <. (35)

وبهذا يمكن القول بأن السر فيما حدث لإدريس وأمثاله، من خيبة وانفصال عن الواقع والمجتمع، مرده أساسا لنوعية التربية التي تلقاها، والتكوين الذي تشبع به، لما لعبه من دور في تشكيل ملامح الصورة الحالمة في ذهن إدريس لما ينبغي أن تكون عليه الامور، مما لم يجد له أثرا على أرضية الواقع، فيبقي موزعا بشكل مأساوي بين حلم وردي، وواقع سوداوي، شأنه في ذلك شأن بطل رواية التربية الوجدانية لفلوبير) الذي ظل يعاني بدوره من نفس الإحساس المأساوي بالانفصال بين الحلم والواقع، ولعل هذا ما جعل لوكاش يصفها في عمله التنظيري الرائد نظرية الرواية) ضمن خانة ما أسماه –بروايات رومانسية الأمل حيث إن >نمط علاقة عدم التلاؤم ...يرجع إلى أن الروح أوسع وأرحب من جميع المصائر التي يسع الحياة أن تقدمها لها، والفرق البنيوي الحاسم الناجم عن ذلك هو أن الأمر لم يعد يتعلق هنا بقبلي مجرد تجاه الحياة، يدعي التحقق بواسطة الأفعال، والتي تمنح صراعاته مع العالم الخارجي للرواية ترتيب الوقائع الذي يصنع لحمتها، وإنما يتعلق الأمر بواقع داخلي خالص مكتمل أو ناجز بدرجات متفاوتة، غني بالمضامين، ويدخل في تنافس مع واقع العالم الخارجي، له حياة خاصة به غنية ومضطربة، ويعد نفسه، بماله من ثقة تلقائية في ذاته، بمثابة الواقع الحقيقي الوحيد، وبمثابة ماهية للعالم ذاتها، إنه واقع يشكل الفشل الذي يمنى به في محاولة جعل هذا التطابق تطابقا فعليا، عيني موضوع السرد<. (36) وذلك مقابل المثالية المجردة (التي تمثلها رواية دون كيشوت لسرفانتس، والمحاولة التوفيقية التي تمثلها رواية سنوات تعلم ولهلم مايستر) لجوته. لهذا فلا غرابة إذا ما وجدنا، أوراق إدريس، تتضمن من بين ماتتضمنه ملاحظاته عن هذه الرواية، لاباعتبارها نصا سرديا يتناول نفس الأشكال فحسب، وإنما أيضا وأساسا لكونها تطرح قضية التربية كعنصر هام وأساسي في تشكيل كيان الشخصية، مما يجعلها، من هذه الناحية، أشبه ما تكون بصورة مصغرة لحكاية إدريس، وتوضيحا لأبعاد سيرته الذهنية الخفية، أي أنها تقوم بما يعرف في المجال السردي

بدور (الارصاد) (la mise en abyme) أو الانشطار) على حد ترجمة الأستاذ اليابوري حيث: >تتحول القصة الصغرى المتضمنة في الكبرى بالمرآة وعندما تأتي القصة المسبقة –الكبرى– لتنمرى فيها، فهي عرضة لأن تسفرها الذي تنوي إخفاءه، إن الإرصاد في قصة تتوخى أن تكون ناقصة، يمكن أن يرى تنازعه، وقد انجلى عن قدرة كاشفة<.(37) وهو مايكشف أبعاد التعليق المعبر الذي أبداه شعيب بخصوص ورقته المتضمنة لرؤية إدريس في هذه الرواية، والعلاقة الخطية والمقاربة الذكية التي يقول بطلها: >التربية الوجدانية حكاية رغبة لم تتحقق، سيرة ذاتية مكتوبة بأسلوب نقدي استهزائي، أقصوصة إدريس أيضا حكاية إخفاق شامل ونهائي، الحياة كلها خيال في خيال، عقم في عقم، التربية تدريب على تعقب الأطباق التي تستدرج الخلق بوساطة الهوى إلى عالم الفناء ... هكذا يحكم إدريس على التربية التي تلقاها، بمضمونها ووعائها<.(38)

المرحلة الثالثة: وتشمل الفصول الثلاثة الأخيرة المتضمنة في القسم الثالث، والمعنونة على التوالي بـ (العاطفة، الذوق والتعبير) وتغطى على المستوى الزمني الخاص بحياة إدريس فترة ما بعد إنهاء الدراسة الجامعية بفرنسا التي صادفت من الناحية التاريخية حصول المغرب على الاستقلال، مما يفترض مغادرة متبادلة ومتزامنة تقريبا لإدريس لأجواء باريس والعودة للوطن المستقل للمساهمة في بناء المغرب الجديد، مقابل انسحاب مماثل للسلطات الاستعمارية الفرنسية من الربوع المغربية وتخليها النهائي عن التدخل في الشؤون السياسية والاقتصادية الوطنية الداخلية والخارجية على السواء، لكن شيئا من هذا للأسف الشديد لم يحدث، وهكذا نجد إدريس يؤجل عودته للمغرب لما بعد انتهاء امتحانات التخرج، خلافا لما فعله أغلب الطلبة المغاربة آنذاك، الذين تسابقوا على اقتسام غنائم المرحلة الجديدة: >قطع كثير من الطلبة دراساتهم عند الإعلان عن الاستقلال، ودخلوا إلى المغرب ليملأوا المناصب الشاغرة، بسبب نزوح الموظفين الفرنسيين، لم يقتد بهم إدريس، فضل أن ينتظر انتهاء امتحانات التخرج ليلتحق بالمغرب مع حلول الصيف، اجتاز الامتحان بتفوق، أقفلت المدارس أبوابها، فرغت باريس من السكان، ومع ذلك مكث إدريس في فرنسا، شعر شعورا قويا أنه لوغادر باريس آنذاك لما ذاق أبدا بعد ذلك طعم الحياة، فقرر أن يعطي لنفسه مهلة، أن يقضي شهرين على الأقل دون أي تفكير في المستقبل<(39). هذا في الوقت الذي نجد فيه الاستعمار الفرنسي يغادر المغرب من الباب، ليعود إليه من النافذة كما يقال، وكأني به سئم حكم المغرب بالسلاح فاكتفى بتحقيق ذلك بالسياسة، باعتبارها أضمن وأقل كلفة، مما سيكون سببا إضافيا سيزيد في تعميق الخيبة الكبيرة التي سيحس بها إدريس في هذه المرحلة، ينضاف طبعا للفراغ الوجداني والعاطفي الذي عانى منه في المرحلة السابقة أثناء تواجده بفرنسا، خصوصا بعد انقشاع أوهامه

وتبخرها في غمرة انتهاء الأزمة الوطنية بكل الامتلاء الفكري والنفسي الذي كانت تشكله في حياة إدريس، فجعلته يشعر معها وكأنه فقد رفيقا عزيزا في مفترق الطريق، فلم يعد بإمكانه العودة للبداية، ولا استكمال الطريق بمفرده، ليبقى صريع وضع مأساوي قاتل موزعا بين واقع يرفضه وحلم يصعب تحقيقه. تجاوز طبيعي لهيمنة سلطة تكوين معين عليه، بحيث أصبح ضحية له لا يستطيع منه فكاكا، كما يتضح ذلك من فحوى الحوار الدائر بين شعيب والسارد، حول الأثر النفسي لهذه المرحلة على حياة إدريس الفكرية والنفسية: >عرفت أنت مغرب 56، خرجت من السجن، وقلت، تحقق الحلم، تلك كانت وسيلتك، هل دامت؟ قلت، بعد الشدة الفرج، كانت شدتك السجن، أما شدته هو، سجنه هو، فكان شيئا فشيئا يقاس بحالتين، حالته هنا وحالته هناك، لايمكن أن يقول صادقا، خرجت من السجن .

–ومع ذلك خرج من السجن، كما خرجنا منه جميعا، نحن وسائر المغاربة.

–من سجن لا من السجن، من سجن مادي ولا من سجن فكري، لم يعبر عن ذلك بلسانه (على الأقل في الأيام الأولى)، ولكنه عبر عنه، بجسمه كالغارق، تخبط تخبط.

–رموز إذن كتاباته !

–رموز غير متوخاة، إذ يصدق التحليل الوارد في القطعة على علاقة المثقف بمحيطه، لا يقدر على تطويعه، ولايرضى بالخضوع له، فيلجأ إلى المماطلة إلى إرجاء كل شيء إلى مستقبل مستقر يتحكم فيه قدر إلهي أو طموح جماعي<.(40) فأصبح يعيش أزمة روحية حادة ستقبر حتما مجرى حياته خصوصا بعد انقشاع الأوهام، وضياع الأحلام التي طالما منى نفسه بتحقيقها، واكتشاف حقيقة الأوضاع الخاصة والعامة التي أصبح يحياها، وهي أزمة طالما حاول، قبل الآن، التغاضي عنها وتجاهلها بالانغماس في المطالعة تارة، والاهتمام بالقضايا السياسية والفكرية تارات أخرى، في ظل الأوضاع التاريخية الوطنية والدولية المتوترة آنذاك، إلى أن جاء الاستقلال، فتحولت الأزمة لخيبة، عجز كليا عن مداراتها كما حصل في السابق، فإذا به يحس بالفراغ التام، يقول شعيب معلقا على هذه الوضعية التي وصلها إدريس في هذه المرحلة من حياته: >لم يترك إدريس وصفا لشيء من هذا القبيل، ولكني أرى أثر أزمة في كتاباته وتصرفاته، بدأت شتاء 1955، ثم اختفت عندما غمس إدريس همومه في مآسي الوطن، ولما تحرر المغرب أحس بالخيبة كمن كان يسير صحبة رفيق، ثم تابع السير وحده على مفترق الطريق<.(41) وكيف لايحس بذلك وهو الذي قضى الشطر الأول من حياته يحلم بواقع وردي على مقاس مثالي مشبع بالأفكار والمعتقدات العقلانية الغربية التي نهل من ينابيعها الصافية، ليفيق بعد عشرين سنة على وقع الحقيقة المرة تهدم بمعولها الضاري كل تصوراته وأوهامه، محولة إياها لذكريات هاربة تقبع في الماضي وليظل إدريس

متمسكا بها كحقائق ولو على مستوى الذاكرة أمام استحالة بلورتها على مستوى الواقع، إنه الحنين الدائم والمستمر الذي سيشد إدريس لهذه الأحلام الوردية الضائعة طوال هذا القسم الثالث والأخير من هذا العمل، وبالتالي من حياته، رغم المحاولات المضنية المتوالية التي سيبذلها في محاولة للتغلب عليه والتخلص من آثاره النفسية القاضية، تارة بالإشباع العاطفي عن طريق ربط العلاقة مع الفتاتين، الفرنسية والألمانية، كمحاولة أخيرة لإيجاد تبرير مقنع للاستمرار في التمسك بالحياة وبالتالي خلق انشغال بديل يعوض به ما فاته في المجالات الأخرى، كما توضح ذلك مذكراته عن الفتاة الألمانية: >لم تكوني مجرد معرفة لقيتها صدفة في المترو ورافقتها إلى شارتر، كنت الفرصة الأخيرة المتاحة لي لأخذ مقعدي على مائدة الحياة<.(42) وتارة أخرى بالمطالعة والكتابة، في محاولة للإمساك بالحقيقة الضائعة المتبخرة، وإنقاذها من الضياع بين مخالب الزمن التي لاترحم، تماما كما فعل مارسيل بروست في البحث عن الزمن الضائع) التي قرأها إدريس بلهفة فائقة في هذه المرحلة الدقيقة والحاسمة من حياته، وكأني به يحس عمق التقاطع الدلالي الرمزي الموجود بين هذا النص الروائي الرائع، ومأساته الشخصية الخاصة، في هذه المرحلة بالذات، فيود استخلاص العبرة، والاسترشاد بالفكر، كما كان يفعل دائما، لإيجاد مخرج لنفسه من الوضعية المأساوية التي يوجد فيها، لكن محاولته هذه لم يكتب لها النجاح كسابقاتها، نظرا للمغزى التشاؤمي العميق الذي يضمره من جهة، ولاعتقاده الراسخ من جهة أخرى في لاجدواها مادامت تنتهي بالفناء شأنها في ذلك شأن التجربة الصوفية: >بمعنى أن ادريس أخفق عندما فهم أن تجربته الفنية تساوت، بغير وعي منه، بالتجربة الصوفية التي تنتهي دائما بالفناء، بما أن إدريس لم يرد أن ينفصل عن مجتمعه فإنه انتهى إلى ما انتهى إليه مجتمعه، أي الصمت في ميدان التعبير الأدبي<.(43) فكان ذلك بمثابة الضربة القاضية التي أتت على آخر محاولاته الرامية للتمسك بخيوط الأمل، وإعطاء معنى للحياة، عن طريق الكتابة باعتبارها وسيلة من وسائل استحضار للخطابات البراقة الهاربة، لكنه تخلى عنها بعد قراءة مطولة لبروست واكتشف من خلالها زيف هذه الوسيلة، وبالتالي زيف الحياة: >قرأ إدريس رواية بروست كلغز كمهزلة اجتماعية كمأساة رجل قضى عليه اللهو والمرض، انغمس فيها، التذ بها، استحلاها كما يستحلي المرء الدقائق الأولى حين يدخل الحمام، لكنه في نفس الوقت تشبع بتوجهاتها اليائسة، ماذا يقول بروست؟ كل موجود –حي أوجامد، ساكن أو ناطق، ساكن أو متحرك– ستر خادع، تحب الشيء، تظن أنك لا تستطيع أن تعيش بدونه، تعمل ما فوق طاقتك لامتلاكه، ثم تحصل عليه فتكتشف أنه لم يكن يستحق الجهد المبذول في سبيله، عاش بروست حياة فارغة ينتظر أن يدخل عالما مسحورا، ثم انفتح له باب ذلك العالم، فاكتشف أن الحياة التي كان يظن أنها لامعة هي في الواقع تافهة، فحن إلى فترة الانتظار الأولى،

غلبه اليأس ثم بعد حين تبدد الحزن، عندما أدرك أنه يستطيع استحضار تلك الفترة بالذات، وبالتالي إعادة البريق إلى الحياة التافهة، وجد المخرج إذن، ولكنه مخرج خادع في نهاية التحليل، بحث بروست على مادة للتعبير، لم يكن يتصور أن الفن كامن في الحياة، أو أن الحياة تتحول من ذاتها إلى فن، كان يظن أنهما عالمان منفصلان متباعدان، كانفصال وتباعد الأرستقراطية والبورجوازية، طريق غرمانت وطريق سوان / 83. بعد التجربة والفشل أدرك أن الفن ليس مادة، بقدر ماهو تلوين، تكييف للحياة نفسها، الحياة التافهة، وأن عملية التلوين هذه توقف الانسياب الزمني الذي يجعل كل مظهر من مظاهر الحياة خدعة، هذه المحاولة لمصارعة الزمن والتغلب عليه ذات قيمة إذن؟ في الظاهر فقط، قيمة الفن إنسانية، وليست كونية، يعلم بروست أن اللحظة المنفصلة عن الانسياب الزمني خاصة به كفرد، متصلة بمجتمعه، وقد يأتي وقت لم يعد أحد يهتم به ولا بمجتمعه، بل يأتي وقت لم يعد أحد يهتم بالأرض ومن عليها، الحياة خدعة، والفن خدعة، خدعة من خدع الحياة ذاتها، لا أظن أحدا فاق بروست في تشاؤمه، فجر آخر مأوى لأدباء كبار متشائمي القرن الماضي<.(44) مما سيكون له دون شك التأثير الكبير في المصير المأساوي الذي ستؤول إليه حياة هذه الشخصية، كنهاية طبيعية حتمية للانشطار المأساوي الذي أجبر عليه إدريس إثر تلقيه تكوينا ثقافيا وتربويا معينا ساهم في تعميق القطيعة بينه وبين واقعه: > لقد عجز إدريس عن اقتناص النغمة المواكبة، فأنعش هذا العجز بكل الإخفاقات السابقة، كان إدريس يستحملها عندما كان يستغلها كمادة، ثم عندما فشل حتى في تحويلها إلى وسيلة انتقام من الغير ومن التاريخ، فإنه حكم على نفسه باليأس القاتل، لم يكن في مستوى طموحه، كما لم يكن مجتمعه في مستوى آماله، مات كما مات غيره من العجز والحسرة<.(45) ولعل هذا ماجعل السارد وشعيب رغم اختلافهما، يتفقان في النهاية على إرجاع سبب موت إدريس، من خلال الاستقراء الطويل والدقيق لأوراقه وسيرته الذهنية، لنوعية تربيته من جهة ولتكوينه الثقافي من جهة أخرى، وماكان لهما من تأثير قوي في تشكيل شخصيته وتحديد المسار الذي ستعرفه حياته مستقبلا ورغم المحاولات المتتالية التي قام بها للتخلص من هذ الموروث الثقافي الدخيل والغريب عليه، إلا أنه لم يستطع، لأنه كان الأقوى والأكثر تجردا، كما يتضح من الحوار الذي دار بينهما ، حيث يقول شعيب: >المحتمل أن يكون إدريس ذهب ضحية أفكار تفشت في ذهنه ولم يستطع أن يتخلص منها، رغم عملية النجر والتنقية التي مافتئ يجريها على وعيه، (...) كانت تجارب إدريس سطحية كلها، لأنها لم تتخط أبدا حدود العقل، بحث عن شعور عز عليه أن يجريه بالفعل، أقصى ماقام به هوأنه ثار ضد المخزون في ذهنه، رأى فيه أصل انسلاخه عن هويته، حمل وزر هموم وآلام من دفع به إلى مدرسة الأجانب، غير أنه لم يقدم أبدا على الخطوة الفاصلة، على محو المخزون من الذاكرة،

الذهنية والجسمية، انتفخ ولم يتقو، انعزل ولم يستقل، احتقر التاريخ والثقافة ولم ينسهما: حكم على نفسه بالإخفاق لما أخطأ التشخيص<.(46) وهو ما سيوافقه عليه السارد من خلال الرد المثمن لمصداقية الخلاصة التي انتهى إليها شعيب من دراسة لأوراق إدريس: >لكني أرى أنك اهتديت في النهاية إلى الكلمة الفاصلة: قلت إنه رفض أن ينسى، لو قبل أن ينسى ذاته لتوقدت شخصيته لاستعاد توازنه، ولربما نجح على كل الأصعدة<.(47) ويضيف قائلا: >لقد انحل إدريس لانه رفض الحلول في الطبيعة أوفي التاريخ أو في القاموس أو في الفن، تألم حتى ذهب إلى الأطراف فاشتاق إلى الأوبة وعاد بسرعة الريح، تقول كان ضحية، وأقول وفيا، وأحب لو تشير بالكلمتين إلى معنى واحد<.(48)

وبذلك تقدم أوراق الدليل، إن كان الأمر يحتاج إلى دليل، على الدور الكبير للتربية والتعليم في تكوين شخصية الفرد، لدرجة تصبح معها كما في حالة إدريس السبب العميق والخفي الثاوي وراء فشل محاولاته المضنية المتتالية الرامية لتحقيق الاندماج والتصالح الكليين مع الحياة العادية بمختلف مظاهرها وأبعادها العاطفية، الفنية والسياسية، مما سيؤدي به في النهاية للموت، ولعل هذا مادفع السارد للقول معلقا على النهاية المأساوية التي آلت إليها حياة هذه الشخصية ، >إدريس أودى به إيمانه<.(49)

---

* عبد الله العروي : أوراق ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الاولى ، 1989 .

1) عبد الله العروي : في حوار خاص بعنوان التحديث والديمقراطية ، مجلة الآداب العدد الأول والثاني ، يناير فبراير 1995، ص. 19 .

2) عبد الحميد عقار: نفس الاستجواب السابق ، ص. 13 .

3) عبد الله العروي : نفس الاستجواب السابق ، ص. 13 .

4) عبد الله العروي : رواية مذكورة ، ص. 182 .

5 – العروي، نفسه ، ص. 10 . 6 – العروي، نفسه ، ص : 230 7– العروي، نفسه ، ص : 7 .

8 – العروي، نفسه ، ص : 256 .

9 – أنظر : Wayne . C. Booth : Distance et point de vue , in poétique du récit , éd seuil 1977 p 92

10 – عبد الله العروي : نفس الاستجواب السابق ، ص : 11 / 12 .

11 – أنظر T. Todorov : Littérature et signification, éd : Larousse 1967 , p : 81

12 – أنظر : G. Genette : Figures III , éd : Seuil , col : poétique 1972, p : 207

13 – أنظر : T. Todorov : Les catégories du récit littéraire, in l'analyse structurale du récit , éd : Seuil, col : points 1981 , p : 148 .

14 – أنظر : G. Genette : Op, Cit , p : 261

15 – أنظر : G. Genette : Op, Cit , p : 262

16 – عبد الله العروي : رواية مذكورة ، ص : 15 .

17 – عبد الله العروي : رواية مذكورة ، ص : 15 .

18 – عبد الله العروي : رواية مذكورة ، ص : 7 .

19 – أنظر : G. Genette : Op cit, p : 262

20 – عبد الله العروي : رواية مذكورة ، ص : 18 .

21 – العروي، نفسه ، ص : 15 .

22 – العروي، نفسه ، ص : 54 / 55 . 23 – العروي، نفسه ، ص : 54 . 24 – العروي، نفسه ، ص : 58 .

25 – العروي، نفسه ، ص : 54 . 26 – العروي، نفسه ، ص : 67 . 27 – العروي، نفسه ، ص : 79 .

28 – العروي، نفسه ، ص : 82 . 29 – العروي، نفسه ، ص : 75 . 30 – العروي، نفسه ، ص : 76 .

31 – العروي، نفسه ، ص : 90 . 32 – العروي، نفسه ، ص : 90 . 33 – العروي، نفسه ، ص : 81 .

34 – العروي، نفسه ، ص : 89 . 35 – العروي، نفسه ، ص : 120 / 121 .

36 – جورج لوكاش : نظرية الرواية ، ترجمة : الحسين سحبان ، منشورات التل ، الطبعة الاولى ، الرباط ، 1988 ، ص : 106 .

37. – جان ريكاردو : قضايا الرواية الجديدة : ترجمة : صياح الجهيم ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ، ص : 278 / 279 .

38 – العروي، نفسه ، ص : 80 . 39 – العروي، نفسه ، ص : 155 . 40 – العروي، نفسه ، ص : 159 .

41 – العروي، نفسه ، ص : 155 . 42 – العروي، نفسه ، ص : 160 .

43 – عبد الله العروي : نفس الاستجواب السابق : ص : 14 .

44 – عبد الله العروي : رواية مذكورة ، ص : 156 / 157 .

45 – العروي، نفسه ، ص : 241 . 46 – العروي، نفسه ، ص : 241 . 47 – العروي، نفسه ، ص : 245 .

48 – العروي، نفسه ، ص : 247 . 49 – العروي، نفسه ، ص : 247 .